رما قصة « تايس » لأناتول فرانس فقرأتها بلهفة فقد استطاع لترجم الانجليزى أن يحتفظ بقوة الأسلوب وتحدره وبراعة العبارة سحرها . ومضت بضعة شهور ثم دفع إلى الأستاذ العقاد رواية ، هايبيشيا » للكاتب الانجليزى « تشارلز كنجزلى » فقرأتها يضاً ، ثم سألنى : ما رأيك ؟ قلت : غريب . قال : إن الروايتين ىء واحد . قلت : صحيح

والواقع أن الروايتين شىء واحد وأن تايس مأخوذة من هايبيشيا بلا أدنى شك . وفى وسع من شاء أن يقول إن أناتول رانس ما كان يستطيع أن يكتب — أو ما كان يخطر له أن يكتب روايته لو لم يسبقه تشارلز كنجزلي إلى الموضوع . ذلك أن تايس فى رواية أناتول فرانس هى هايبيشيا فى رواية كنجزلى ، والعصر موالعصر والبلاد هي البلاد ، وكل ما هناك من الاختلاف هو أن ناتول فرانس أستاذ فنان ، وأن تشارلز كنجزلى أستاذ مؤرخ. رأنا مع ذلك أفضل رواية هايبيشيا وأراها أكبر وأعمق وأملأ لنفس وأمتع للعقل ، فما لأناتول فرانس فى تايس غير براعة الأسلوب وحلاوة الفن ، ولكن الصور في رواية هايبيشيا أتم وأصدق ، والشخصيات أكثر ورسمها أقوى وأوفى والموضوع أحفل . وفى رسمى أن أقول بلا مبالغة إنها تعرض عليك عالماً تاماً لا ينقصه جانب واحد من الجوانب ؛ أما تايس فليست سوى لمحة خاطفة من هذا العالم

وتشارلز كنجزلى يرسم لك الحياة فى تلك الفترة من تاريخ مصر بكل ماانطوت عليه ويريك الناس والأشياء والعادات والأخلاق والآراء والفلسفات الشائعة والفردية بدقة وأمانة ، أما أناتول فرانس فيرسم لك بقلمه البارع خطوطاً سريعة تريك ماوقع فى نفسه من ذلك العصر ، فهو أشبه بالمصورين الذين يجرون على طريقة الامبرشزنم أى الذين يصورون وقع المناظر فى النفس لا المناظر كما هى فى الحقيقة والواقع .

هذا بعض ما يسعنى الآن أن أذكره وأمثال هذا كثير فى الآداب الغربية ، وليس له فى الأدب العربى نظير ، وأسباب ذلك كثيرة يطول فيها الكلام فلنرجئها إلى فرصة أخرى تتسع لوجوه التعليل المختلفة .

ابراهيم عبد القادر المازنى

فى التاريخ السياسى :

المأساة الفلسطينية
ومشروع التقسيم البريطانى

بقلم باحث دبلوماسى كبير

لما تسربت الأنباء الأولى عن مشروع اللجنة الملكية البريطانية فى تقسيم فلسطين إلى دولتين إحداهما عربية والأخرى يهودية ، وقبل أن يذاع تقرير اللجنة أبدينا فى «الرسالة» أن هذا الحل الجديد الذي ابتكرته السياسة البريطانية لتسوية المسألة الفلسطينية لم يكن حلاً موفقاً ، وأنه لا يمكن أن يرضي أحداً من الفريقين المتنازعين

والآن وقد مضت أسابيع على ظهور تقرير اللجنة عن مشروع التقسيم ، وعرفنا إلى أي حد ذهبت اللجنة الملكية فى استنتاجاتها وفى توصياتها ، وكيف استقبل العرب مقترحاتها بعاصفة من السخط والانكار المطلق لا فى فلسطين وحدها ولكن فى جميع أنحاء الجزيرة العربية ، وكيف اعتزمت فلسطين أن تستأنف النضال فى سبيل حياتها وكيانها ، وكيف تغدو اليوم وشيكة انفجار جديد لا تؤمن عواقبه ، فانه يصعب علينا أن نعتقد أن الحكومة البريطانية التى أقرت مقترحات اللجنة على عجل لم تعتده فى مثل هذه المناسبات الخطيرة ، ستغضى عن هذه العوامل الجديدة التى ظهرت فى الميدان منذ ظهور التقرير ، والتى لا يمكن أن تعاون على استتباب السلام المنشود فى فلسطين

إن مشروع التقسيم الذي تقترحه اللجنة يمزق فلسطين شر ممزق بل هو يقضى القضاء الأخير على كيانها القومي ويخرجها من عداد الأمم والمجتمعات ذوات المميزات الخاصة ويحرمها من كل أمل فى التقدم والنهوض ؛ وإن نظرة واحدة إلى الحدود المقترحة لهذا التقسيم تكفى للحكم بأن فلسطين تمحى بمقتضاه من خريطة الوجود ولا يبقى منها برسم الدولة العربية الجديدة سوى صخور وبسائط صحراوية لم يتح للعمران طيلة القرون أن يذللها وأن يستثمرها ؛ وماذا عسى أن يبقى من فلسطين العربية إذا اقتطعت منها كل

سواحلها وثغورها وقواعدها المقدسة وكل بقاعها الخصبة ؟ إن الدولة اليهودية التي يشير التقرير بانشائها تشمل في الواقع كل قواعد فلسطين وثغورها التاريخية عدا تل ابيب الذي يبقى وحده مخرجاً بحرياً للقسم الصحراوي الذي خصص للعرب ؛ أما بقاع فلسطين المقدسة التي لبثت علماً عليها طوال القرون فقد تقرر أن تؤلف منها منطقة خاصة توضع تحت إشراف عصبة الأمم أو بالحري تحت إشراف الانتداب البريطاني ، وبذلك تجرد كل فلسطين من قواعدها التاريخية وكل ثرواتها ومواردها الاقتصادية في مصلحة الدولة اليهودية الجديدة ؛ ومع ذلك فاللجنة الملكية تنوه في تقريرها بأهمية هذا التقسيم بالنسبة للعرب ، وتقول لنا إنه « سيمكنهم من الحصول على استقلالهم الوطني والتعاون على قدم المساواة مع العرب في البلاد المجاورة ، وذلك في كل ما يؤول إلى وحدة العرب ونجاحهم وسيخلصون نهائياً من خوف تسلط اليهود عليهم ووقوع الأماكن المقدسة بيد اليهود »

على أن هذه الألفاظ المسولة لا تغير شيئاً من الحقيقة الهائلة وهي أن مشروع التقسيم يمحو فلسطين العربية من خريطة الوجود لينشئ على أنقاضها وتراثها التاريخي مملكة اسرائيل وليحقق بذلك حلم اليهودية القديم ؛ نعم إن المساحة التي تضمها الدولة اليهودية الجديدة هي أقل مما تطمح إليه اليهودية ، ولكنها تحتوي كما قدمنا على أطيب ما في فلسطين من قواعد وثغور ، واليهودية تغدو في هذا الحيز الضيق أقوى وأشد إيماناً بالمستقبل ؛ ثم هي مع ذلك بدء فقط ؛ واليهودية تأسف بلا ريب أن تخرج بيت المقدس من قبضتها وهي مثوى تراثها الروحي وذكرياتها المقدسة ، ولكنها تتعزى عن ذلك بخروجها من قبضة العرب أيضاً ، وكونها وهي في يد انكلترا أقرب إلى نفوذها ؛ ومن يدري فقد تسنح الفرصة فيما بعد لاستردادها بطريقة من الطرق ، وبذلك يصبح ظفر اليهودية باحياء مملكة إسرائيل القديمة كاملا شاملا

والخلاصة أن مشروع التقسيم هو قرعة الفناء للأمة الفلسطينية وهي حقيقة لم يتردد العرب لحظة في إدراكها ، ومن ثم كان رفضهم للمشروع بهذا الاجماع السريع المؤثر الذي هو عنوان الخطر القومي ، والذي تلوذ به الأمم المجاهدة في مواقف الحياة والموت ؛ ولقد جاهدت فلسطين مذ نكبت بالانتداب والوطن القومي اليهودي في سبيل حريتها وعروبتها ، ولم تقبل أن تكون ميداناً لهذه التجربة اليهودية الخطرة التي لم تكن تتوجها مع ذلك أية صبغة شرعية أكثر من وعد الحكومة البريطانية بمؤازرتها ، فكيف ينتظر منها أن تقبل اليوم أن تقوم في قلبها وفي أطيب بقاعها مملكة يهودية تتمتع بصفة شرعية دولية ، تنازعها البقاء وتنذرها بالفناء العاجل بما هيء لها من أسباب التفوق السياسي والاقتصادي والاجتماعي

* * *

ومن حسن الطالع أن الأمة الفلسطينية لا تقف وحدها في هذا النضال الذي هو بالنسبة إليها معركة الحياة والموت ، فان شقيقاتها العربيات قد فزعت لفزعها وهبت من حولها تنصرها وتشد أزرها بالقول والعمل معا ، فألقى رئيس الوزارة العراقية تصريحاته الرسمية المعروفة في إنكار مشروع التقسيم والحملة عليه بشدة ، وفي التنويه بما تعتزمه العراق من مقاومته باعتباره خطراً لا على فلسطين وحدها ولكن على الأمة العربية بأسرها ؛ ولم يقف رئيس الوزارة العراقية عند هذه التصريحات القوية الحازمة بل قدم احتجاجه بصفة رسمية إلى الحكومة البريطانية ؛ وأيد الشعب العراقي موقف حكومته بتنظيم مظاهرات الاحتجاج في بغداد وغيرها ؛ وحذت الحكومة السورية حذو الحكومة العراقية في القاء التصريحات الرسمية بمعارضة مشروع التقسيم ، وفي توجيه الاحتجاج الرسمي إلى لجنة الانتداب بعصبة الأمم ، وقام الشعب السوري بمظاهرات مماثلة لتأييد فلسطين في موقفها ؛ وقامت مظاهرات مماثلة في الحجاز ، وما تزال عواصم الجزيرة العربية كلها تضطرم بأمواج الاحتجاج والسخط على مشروع التقسيم والعطف على فلسطين وتأييدها في جهادها . كذلك لم تكن مصر بمعزل عن هذه الحركة وإن تكن الحكومة المصرية قد آثرت أن تعمل في صمت وهدوء ؛ فقد أعرب رئيس الحكومة المصرية في بيانه الرسمي بمجلس الشيوخ عن اهتمام الحكومة المصرية بالقضية الفلسطينية وأشار إلى ماجرى من اتصاله بالحكومة البريطانية في شأنها أكثر من مرة ، وإلى أنه عقب ظهور تقرير اللجنة الملكية قد بادر باستئناف هذا الاتصال والسعي بالمسائل الدبلوماسية إلى العمل على صيانة حقوق العرب

ومصالحهم ، مؤثراً ألا تكون هذه المساعي موضع المناقشة العلنية حرصاً على مصلحة فلسطين ذاتها ؛ هذا إلى ما أبدته الهيئات السياسية والوطنية المصرية من احتجاج على مشروع التقسيم وتأييد قلبي لفلسطين .

والواقع أن قيام اليهودية في فلسطين في مثل هذا الحشد القوى المنظم ، خطر داهم لا على فلسطين وحدها ، ولكن على العالم العربي والاسلامي كله ؛ ويزيد هذا الخطر ويذكيه أن تنتظم اليهودية على هذا النحو إلى دولة ذات شخصية مستقلة تجثم في قلب العالم العربي ؛ وهذا الخطر متعدد النواحي ، فمن الوجهتين السياسية والاقتصادية يخشى أن تكون هذه الدولة الجديدة التي لايتأتى لها البناء إلا على ماتستطيع تقويضه من صروح الأمة العربية ، مصدر اضطراب دائم في هذا الجزء من الجزيرة العربية ؛ وخطرها السياسي على كيان الأمة العربية ظاهر لايحتاج إلى بيان ؛ أما خطرها الاقتصادي فنحن نعرف كيف تعمل اليهودية بوسائلها القوية المعروفة أينما حلت على الاستئثار بجميع الثروات والمرافق ؛ على أن هناك خطراً أشد وأفدح من قيام اليهودية في صميم المجتمع العربي والاسلامي على هذا النحو ، هو الخطر المعنوي إذا صح التعبير ؛ ذلك أن اليهودية كما يشهد تاريخها الفكري والفلسفي تضطرم دائماً بروح الثورة والانتقاض والهدم ، وقد كان هذا الروح الثوري الهدام مبعث كثير من الحركات الثورية الهدامة الخفية والظاهرة التي قلبت أوضاع المجتمع ، وبثت إليه كثيراً من عناصر الانحلال والفوضى ؛ ويكفي أن نمثل لذلك بالشيوعية التي تعتبر اليوم أخطر عناصر الهدم ، فهي من نفثات العقلية اليهودية ؛ ومذ حلت الصهيونية في فلسطين ظهرت معها العناصر الشيوعية وأخذت تتسرب إلى مصر وسوريا والعراق ؛ وهذه العناصر الثورية الهدامة التي تحملها اليهودية معها إلى فلسطين ، تغدو إذا ما اشتد ساعد الدولة اليهودية الجديدة خطراً داهما على الأمم العربية التي تجثم في صميمها .

والأمم العربية تقدر كلها هذا الخطر ، وكلها من وراء فلسطين في درئه ومقاومته ؛ وقد أبدت فلسطين عزمها جلياً قاطعاً على استئناف النضال إذا لم تسمع شكايتها العادلة ، وإذا أريد أن تفرض عليها سياسة التقطيع والتمزيق بالقوة القاهرة . على أننا من جهة أخرى نعتقد أن السياسة البريطانية الفطنة لم يفتها أن تقدر ما كان لمشروع التقسيم من سوء الوقع ، ولم يفتها بالأخص أن تلاحظ موقف البلاد العربية والإسلامية الأخرى وما ينطوى عليه من دلائل لاتستطيع السياسة البريطانية أن تغفلها ؛ ومع أن الحكومة البريطانية قد وافقت على تقرير اللجنة الملكية عن مشروع التقسيم فان ذلك لايعني أنها قد اتخذت خطتها النهائية إزاء المسألة الفلسطينية ؛ كذلك لم يتخذ البرلمان البريطاني أي قرار في شأن المشروع بالرغم من المناقشات العديدة التي جرت حوله والتي لم تخل من بعض ميول معارضة للتقسيم ، بل آثر أن يرجئ قراره حتى تنتهي لجنة الانتداب الدائمة لعصبة الأمم من بحث المشروع ، وهو الآن أمامها قيد النظر .

والخلاصة أن السياسة البريطانية لاتزال بالنسبة للمسألة الفلسطينية في مفترق الطرق ، وهي إذا استطاعت أن تغفل اعتراضات العرب على مشروع التقسيم وإقامة الدولة اليهودية ، فانها لاتستطيع أن تغضي عن موقف الأمم العربية والاسلامية ، وهي جميعاً تؤيد فلسطين في ظلامتها ومحنتها ؛ وانكلترا التي تربطها بالأمم العربية والاسلامية روابط صداقة متينة هي اليوم أشد حاجة منها في أي وقت آخر إلى تأييد هذه الأمم ومحالفتها ؛ وموقع فلسطين والجزيرة العربية في طريق المواصلات الأمبراطورية أمر جوهري بالنسبة لمستقبل الدفاع عن الهند والأمبراطورية البريطانية ؛ فهذه العوامل كلها مما يحملنا على الظن بأن المسألة الفلسطينية قد تجوز تطورات هامة أخرى قبل أن يستبين المصير النهائي الذي قدر لها ؛ وللسياسة أعاجيب لاتفنى وكم سمعنا أيام اشتداد النضال بين مصر وانكلترا ، وعيد السياسة البريطانية بضم مصر إلى الأمبراطورية إذا لم تخلد إلى السكينة وتقبل المصير الذي يفرض عليها ، ولكن مصر لم تن للوعيد حتى اضطرت سياسة القوة الغاشمة أن تنحني ، وأن تترك المجال حراً لسياسة التفاهم والوفاق ؛ وكل مانرجوه في هذه الكلمة هو أن توفق الأمة الفلسطينية المجاهدة في دفاعها المؤثر عن كيانها ، وأن يكلل جهادها بما يحقق أمانيها وطمأنينتها .